

١٦ - سورة النحل

مكية وآياتها ثمان وعشرون ومائة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَنْ أَمُرُ اللَّهَ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سَخِرَ لَكُمْ مِنْهُ وَمَنْ عَمَّا يَشْرُكُونَ﴾ (١)

يخبر تعالى عن اقتراب الساعة وذنوبها، معبراً بصيغة الماضي الدال على التحقق والوقوع لا محالة، كقوله: ﴿اقترِبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مَعْرُضُونَ﴾، وقال: ﴿اقترِبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾، وقوله: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ أي قرب ما تباعد فلا تستعجلوه، والضمير يعود على العذاب، كقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْ لَا أَجَلَ مَسْمُومٍ لَعَجَّ بِكُمْ لِمَا كُفَرْتُمْ بِهِ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَيْنُ السَّامِعَةُ﴾، فإنهم استعجلوا العذاب قبل كونه استبعاداً وكذباً، ثم إنه تعالى نزه نفسه عن شركهم به غيره، وعبادتهم معه ما سواه من الأوثان والأنداد، تعالى وتقدس علواً كبيراً، وهؤلاء هم المكذبون بالساعة^(١)، فقال: ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾.

﴿يُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ (٢)

يقول تعالى: ﴿ينزل الملائكة بالروح﴾ أي الوحي كقوله: ﴿وكلذك أوحينا إليك روحاً من أمرنا﴾، وقوله: ﴿على من يشاء من عباده﴾ وهم الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾، وقال: ﴿الله يصطفي من الملائكة رسلاً مما يَشَاءُ﴾، وقال: ﴿يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده﴾، وقوله: ﴿إن أنذروا﴾ أي لينذروا ﴿أنه لا إله إلا أنا فاتقون﴾ أي فاتقوا عقوبتي لمن خالف أمري وعبدي غيري.

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَالْحَيَّ الْقَيُّومَ عَلَّمَ الْقُرْآنَ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مِمَّا خَشِيَهُ﴾ (٣)

تَبِينَ ﴿٤﴾

يخبر تعالى عن خلقه العالم العلوي وهو السماوات، والعالم السفلي وهو الأرض بما حوت، وأن ذلك مخلوق بالحق لا للعبث به بل ﴿ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى﴾، ثم نزه نفسه عن شرك من عبد معه غيره وهو المستقل بالخلق وحده لا شريك له، فلهذا يستحق أن يعبد وحده لا شريك له ثم تبه على خلق جنس الإنسان ﴿من نطفة﴾ أي مهينة ضعيفة، فلما استقل ودرج إذا هو يخاصم ربه تعالى ويكذبه ويحارب رسله، وهو إنما خلق ليكون عبداً لا ضداً كقوله تعالى: ﴿ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيراً﴾، وقوله: ﴿أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين﴾. وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن بشر بن جحاش قال: بصق رسول الله ﷺ في كفه، ثم قال: يقول الله تعالى: ابن آدم! أتى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه، حتى إذا سويتك فعدلتك مشيت بين برديك وللأرض منك وئيد، فجمعت ومنعت، حتى إذا بلغت الحلقوم، قلت: أتصدق، وأتى أوان الصدقة؟^(٢)

(١) في اللباب: أخرج ابن مردويه: لما نزلت: ﴿أنى أمر الله﴾ وغمر أصحاب رسول الله حتى نزلت: ﴿فلا تستعجلوه﴾ فسكتوا. وأخرج عبد الله ابن الإمام أحمد: لما نزلت: ﴿أنى أمر الله﴾ قاموا، فنزلت: ﴿فلا تستعجلوه﴾.

(٢) رواه الإمام أحمد وابن ماجه في السنن.

﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقْنَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءًا وَمَنْفَعًا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَنْزِرُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّا تَكُونُونَ لَهَا بِرَأْسِهِمْ إِلَّا بِبُحْرِ الْأَنْفُسِ إِنَّكُمْ لَرِءُوفٌ رَّحِيمُونَ ﴿٧﴾﴾

يمتن تعالى على عباده بما خلق لهم من الأنعام وهي (الإبل والبقر والغنم) وبما جعل لهم فيها من المصالح والمنافع من أصوافها وأوبارها وأشعارها يلبسون ويفترشون، ومن ألبانها يشربون، ويأكلون من أولادها وما لهم فيها من الجمال وهو الزينة، ولهذا قال: ﴿ولكم فيها جمال حين تريحون﴾، وهو وقت رجوعها عشياً من المرعى، فإنها تكون أمدّه خواصر وأعظمه ضروعاً، وأعلاه أسنمة، ﴿وحين ترحون﴾ أي غدوة حين تبشونها إلى المرعى، ﴿وتحمل أثقالكم﴾ وهي الأحمال الثقيلة التي تعجزون عن نقلها وحملها، ﴿إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس﴾ وذلك في الحج والعمرة والغزو والتجارة وما جرى مجرى ذلك، تستعملونها في أنواع الاستعمال من ركوب وتحميل كقوله تعالى: ﴿الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون﴾ ولكم فيها منافع وتبلغوا عليها حاجة في صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون﴾، ولهذا قال ههنا بعد تعداد هذه النعم: ﴿إن ربكم لرؤوف رحيم﴾ أي ربكم الذي قبض لكم هذه الأنعام وسخرها لكم كقوله: ﴿وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون﴾، وقال: ﴿وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون﴾، قال ابن عباس: ﴿لكم فيها دفاء﴾ أي ثياب، ﴿ومنافع﴾ ما تنتفعون به من الأطعمة والأشربة، ومنافع نسل كل دابة. وقال مجاهد: ﴿لكم فيها دفاء﴾ أي لباس ينسج ﴿ومنافع﴾ مركب ولحم ولبن. وقال قتادة: دفاء ومنافع يقول: لكم فيها لباس ومنفعة وبلغه، وكذا قال غير واحد من المفسرين بالفاظ متقاربة.

﴿وَالْحَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَحْسَبُونَ ﴿٨﴾﴾

هذا صنف آخر مما خلق تبارك وتعالى لعباده، يمتن به عليهم وهو الخيل والبغال والحمير التي جعلها للركوب والزينة بها وذلك أكبر المقاصد منها، ولما فصلها من الأنعام وأفردها بالذكر، استدل من استدل من العلماء ممن ذهب إلى تحريم لحوم الخيل بذلك على ما ذهب إليه فيها، كالإمام أبي حنيفة رحمه الله ومن وافقه من الفقهاء بأنه تعالى قرنها بالبغال والحمير، وهي حرام، كما ثبتت به السنة النبوية، وذهب إليه أكثر العلماء. وقد روى الإمام أبو جعفر بن جرير عن ابن عباس: أنه كان يكره لحوم الخيل والبغال والحمير، وكان يقول: قال الله تعالى: ﴿والأنعام خلقها لكم فيها دفاء ومنافع ومنها تأكلون﴾ فهذه للأكل، ﴿والخيل والبغال والحمير لتركبوها﴾ فهذه للركوب، ويستأنس لهذا بحديث رواه الإمام أحمد عن خالد بن الوليد رضي الله عنه قال: نهى رسول الله ﷺ عن أكل لحوم الخيل والبغال والحمير، ولكن لا يقاوم ما ثبت في الصحيحين عن جابر بن عبد الله قال: نهى رسول الله ﷺ عن لحوم الحمر الأهلية وأذن في لحوم الخيل، وعن جابر قال: ذبحنا يوم خير الخيل والبغال والحمير، فهانا رسول الله ﷺ عن البغال والحمير، ولم ينهنا عن الخيل^(١). وفي صحيح مسلم عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: نحرنا على عهد رسول الله ﷺ فرساً فأكلناه ونحن بالمدينة. فهذه أدل وأقوى وأثبت، وإلى ذلك صار جمهور العلماء مالك والشافعي وأحمد وأصحابهم وأكثر السلف والخلف والله أعلم.

﴿وَعَلَىٰ اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَاهِرٌ وَلَا يُكْفَىٰ فَهِيَ كَالْحَمِيرِ ﴿٩﴾﴾

لما ذكر تعالى في هذه السورة الحيوانات من الأنعام وغيرها التي يركبونها ويبلغون عليها حاجة في صدورهم، وتحمل أثقالهم إلى البلاد والأماكن البعيدة والأسفار الشاقة، شرع في ذكر الطرق التي يسلكها الناس إليه، فبين أن الحق منها ما هي موصلة إليه فقال: ﴿وعلى الله قصد السبيل﴾، كقوله: ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾، وقال: ﴿هذا صراط علي مستقيم﴾، قال

مجاهد في قوله: ﴿وعلى الله قصد السبيل﴾، قال: طريق الحق على الله. وقال السدي: ﴿وعلى الله قصد السبيل﴾ الإسلام، وقال ابن عباس: وعلى الله البيان أي يبين الهدى والضلالة^(١). وقول مجاهد ههنا أقوى من حيث السياق، لأنه تعالى أخبر أن ثم طرقتك إليك، فليس يصل إليها منها إلا طريق الحق، وهي الطريق التي شرعها ورضيها، وما عداها مسدودة والأعمال فيها مردودة، ولهذا قال تعالى: ﴿ومنها جائز﴾ أي حائد مائل زائل عن الحق. قال ابن عباس وغيره: هي الطرق المختلفة والآراء والأهواء المتفرقة كاليهودية والنصرانية والمجوسية، وقرأ ابن مسعود: ﴿منكم جائز﴾؛ ثم أخبر تعالى أن ذلك كله كائن عن قدرته ومشيئته فقال: ﴿ولو شاء لهداكم أجمعين﴾، كما قال تعالى: ﴿ولو شاء ربك لأمّن من في الأرض كلهم جميعاً﴾، وقال: ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة﴾ الآية.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٧﴾ يُبْتِغُ لَكُمْ بِهِ الزَّيْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٨﴾﴾.

لما ذكر تعالى ما أنعم به عليهم من الأنعام والدواب، شرع في ذكر نعمته عليهم في إنزال المطر من السماء - وهو العلو - مما لهم فيه بلغة ومتاع لهم ولأنعامهم فقال: ﴿لكم منه شراب﴾ أي جعله عذبا زلالا يسوخ لكم شرابه ولم يجعله ملحا أجاجا، ﴿ومنه شجر فيه تسيمون﴾ أي وأخرج لكم منه شجرا ترعون فيه أنعامكم، كما قال ابن عباس^(٢): ﴿تسيمون﴾ أي ترعون ومنه الإبل السائمة، والسوم: الرعي. روى ابن ماجه أن رسول الله ﷺ نهى عن السوم قبل طلوع الشمس. وقوله: ﴿ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات﴾ أي يخرجها من الأرض بهذا الماء الواحد على اختلاف صنوفها وطعومها وألوانها وروائحها وأشكالها، ولهذا قال: ﴿إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾ أي دلالة وحجة على أنه لا إله إلا الله، كما قال تعالى: ﴿أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها إله مع الله بل هم قوم خصمون﴾، ثم قال تعالى:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ نِجْمًا رَّازِقًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٩﴾﴾ وَمَا ذَرَأْنَا لَكُمْ فِي الْأَرْضِ حَبًّا وَلَا نَخِيلًا إِلَّا لِيَذُرَّ بِالْحَقِّ وَالْحَقَّ يَحْكُمُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

ينبه تعالى عباده على آياته العظام، ومنه الجسام في تسخيره الليل والنهار يتعاقبان، والشمس والقمر يدوران، والنجوم الثابتة والسبارات في أرجاء السماوات، نوراً وضياء ليهدى بها في الظلمات، وكل منها يسير في فلكه الذي جعله الله تعالى فيه، يسير بحركة مقدرة لا يزيد عليها ولا ينقص عنها، والجميع تحت قهره وسلطانه وتسخيره وتقديره وتسهيله كقوله: ﴿والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾ ولهذا قال: ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾ أي لدلالات على قدرته تعالى الباهرة وسلطانه العظيم، لقوم يعقلون عن الله ويفهمون حججه. وقوله: ﴿وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه﴾ لما نبه تعالى على معالم السماء نبه على ما خلق في الأرض من الأمور العجيبة والأشياء المختلفة، من الحيوانات والمعادن والنباتات والجمادات، على اختلاف ألوانها وأشكالها وما فيها من المنافع والخواص ﴿إن في ذلك لآية لقوم يذكرون﴾ أي آلاء الله ونعمه فيشكرونها.

﴿هُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبًّا قَالِبُوتًا وَتَسْتَمْتِعُونَ بِمَوَازِيرَ فِيهِ وَتَسْتَمْتِعُونَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَكُمْ فِيهَا حَبْلُ الْمَوْتِ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾ وَاللَّهُ فِي الْأَرْضِ رَازِقٌ أَنْ يَبْدُءَ بِكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ وَطَلَمَسُوا بِهَا الْجَمْعَ هُمْ يَسْتَدْرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ أَمْسِنَ يَمَلُّنَ كَمَا لَا يَمَلُّنَ أَهْلًا يَخْشَوْنَ ﴿٢٤﴾﴾ وَإِنْ تَدَايَا مِنْهُ أَوْ لَا تَتَدَارَى ﴿٢٥﴾﴾

(١) وكذا قال قتادة والضحاك.

(٢) وهو قول عكرمة والضحاك وفتادة وابن زيد.

تَشْرَوْا إِنَّ لَكُمْ لَغُفُورًا رَحِيمًا ﴿١٧﴾

يحير تعالى عن تسخير البحر المتلاطم الأمواج، ويمتن على عباده بتذليله لهم وتيسيرهم للركوب فيه، وما يخلقه فيه من اللآلئ والجواهر النفيسة، وتسهيله للعباد استخراجهم من قراره حلية يلبسونها، وتسخيره البحر لحمل السفن التي تمخره أي تشقه، وقيل: تمخر الرياح وكلاهما صحيح، الذي أرشد العباد إلى صنعتهما، وهداهم إلى ذلك إرثاً عن نوح عليه السلام، فإنه أول من ركب السفن، وله كان تعليم صنعتهما، ثم أخذها الناس عنه قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل، يسرون من قطر إلى قطر، ومن بلد إلى بلد، لجلب ما هناك من الأرزاق، ولهذا قال تعالى: ﴿ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾ أي نعمه وإحسانه، ثم ذكر تعالى الأرض وما ألقى فيها من الرواسي الشامخات والجبال الراسيات لتقر الأرض ولا تميد، أي تضطرب بما عليها من الحيوانات، فلا يهنا لهم عيش بسبب ذلك، ولهذا قال: ﴿والجبال أرساها﴾ وقال الحسن: لما خلقت الأرض كانت تميد فقالوا: ما هذه بمقرة على ظهرها أحداً، فأصبحوا وقد خلقت الجبال، فلم تدر الملائكة مع خلقت الجبال؟ وقال سعيد، عن قيس بن عباد: إن الله لما خلق الأرض جعلت تمور فقالت الملائكة: ما هذه بمقرة على ظهرها أحداً، فأصبحت صباحاً وفيها رواسيها^(١٦). وقوله: ﴿وأنهاراً وسبلاً﴾ أي جعل فيها أنهاراً تجري من مكان إلى مكان آخر رزقاً للعباد ينبع في موضع، وهو رزق لأهل موضع آخر، فيقطع البقاع والبراري والقفار، ويخترق الجبال والآكام، فيصل إلى البلد الذي سخر لأهله، وهي سائرة في الأرض يمنا ويسرة وجنوباً وشمالاً وشرقاً وغرباً، ما بين صغار وكبار، وأودية تجري حيناً وتتقطع في وقت، وما بين نبع وجمع، وقوي السير ويطينه بحسب ما أراد وقدر وسخر ويسر، فلا إله إلا هو ولا رب سواه، وكذلك جعل فيها ﴿سبلاً﴾ أي طرقاً يسلك فيها من بلاد إلى بلاد حتى إنه تعالى ليقطع الجبل حتى يكون ما بينهما ممراً ومسلكاً، كما قال تعالى: ﴿وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً﴾ الآية. وقوله: ﴿وعلامات﴾ أي دلائل من جبال كبار وآكام صغار ونحو ذلك يستدل بها المسافرون برأ ويحراً إذا ضلوا الطرق. وقوله: ﴿وبالنجم هم يهتدون﴾ أي في ظلام الليل، قاله ابن عباس. ثم نبه تعالى على عظمته وأنه لا تنبغي العبادة إلا له دون ما سواه من الأوثان التي لا تخلق شيئاً بل هم يخلقون، ولهذا قال: ﴿أنمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون﴾ ثم نبههم على كثرة نعمه عليهم وإحسانه إليهم فقال: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم﴾ أي يتجاوز عنكم ولو طالبكم بشكر جميع نعمه لعجزتم عن القيام بذلك، ولو أمركم به لضعفتم وتركتم، ولو عذبكم لعذبكم وهو غير ظالم لكم، ولكنه غفور رحيم يغفر الكثير ويجازي على اليسير. وقال ابن جرير: يقول: إن الله لغفور لما كان منكم من تقصير في شكر بعض ذلك إذا تيمم وأنبتم إلى طاعته واتباع مرضاته، رحيم بكم لا يعذبكم بعد الإنابة والتوبة.

﴿وَاللَّهُ يَسِّرُ مَا يَشَاءُ وَمَا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩﴾ أَمْ أَنزَلْتُ عَلَيْهِمْ

أَنْبَاءً وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠﴾ إِنَّا نَبِّئُكَ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٢١﴾﴾

يحير تعالى أنه يعلم الضمائر والسرائر كما يعلم الظواهر، وسيجزي كل عامل بعمله يوم القيامة إن خيراً فخير وإن شراً فشر، ثم أخبر أن الأصنام التي يدعونها من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون، كما قال الخليل: ﴿أنعبون ما تعبتون والله خلقكم وما تعملون﴾، وقوله: ﴿أموات غير أحياء﴾ أي هي جمادات لا أرواح فيها فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل ﴿وما يشعرون أيان يبعثون﴾ أي لا يدرون متى تكون الساعة فكيف يرتجى عند هذه نفع أو ثواب أو جزاء؟ إنما يرجى ذلك من الذي يعلم كل شيء وهو خالق كل شيء.

(١٦) وفي رواية ابن جرير عن علي قال: لما خلق الله الأرض فمضت وقالت: أي رب: تجعل علي بني آدم يعملون الخطايا ويجعلون علي الخبث؟ قال: فأرسل الله فيها من الجبال ما ترون وما لا ترون.

﴿إِنَّهَا إِلَهٌ وَحِيدٌ قَالِيكَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿١١﴾ لَا جَرَمَ لَكَ اللَّهُ بِتَعْلَمَ مَا بَيَّرْتُمْ وَمَا بَيَّرْتُمْ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿١٢﴾﴾ .

يخبر تعالى أنه لا إله إلا هو الواحد الأحد الفرد الصمد، وأخبر أن الكافرين تنكر قلوبهم ذلك كما أخبر عنهم متمجبين من ذلك: ﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب﴾ ، وقال تعالى: ﴿وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ ، وقوله: ﴿وهم مستكبرون﴾ أي عن عبادة الله مع إنكار قلوبهم التوحيد، كما قال: ﴿إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾ ، ولهذا قال ههنا: ﴿لا جرم﴾ أي حقاً، ﴿إن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾ أي وسيجزئهم على ذلك أتم الجزاء ﴿إنه لا يحب المستكبرين﴾ .

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنزِلَ رِزْقُكُمُ قَالَوَا أَسْطِيرُ الْأُولِينَ ﴿١٣﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُبَايِعُهُمْ بَغْيِرَ غِلٍّ مِنَ الْأَسْكَنَاءِ مَا يَرَوْنَكَ ﴿١٤﴾﴾ .

يقول تعالى: وإذا قيل لهؤلاء المكذبين: ﴿ماذا أنزل رزقكم قالوا﴾ معرضين عن الجواب ﴿أساطير الأولين﴾ أي لم ينزل شيئاً وإنما هذا الذي يتلى علينا أساطير الأولين، أي مأخوذ من كتب المتقدمين، كما قال تعالى: ﴿وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً﴾ أي يقترون على الرسول ويقولون أقوالاً متضادة مختلفة كلها باطلة، كما قال تعالى: ﴿انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً﴾ وذلك أن كل من خرج عن الحق فمهما قال خطأ، وكانوا يقولون: ساحر وشاعر وكاهن ومجنون، ثم استقر أمرهم إلى ما اختلقه لهم شيخهم المسمى بالوليد بن المغيرة لما ﴿فكر وقرر﴾ فقتل كيف قدر • ثم قتل كيف قدر • ثم نظر • ثم هيس وبسر • ثم أمير واستكبر • فقال إن هذا إلا سحر يؤثر • أي ينقل، ويحكى: فتفرقوا عن قوله ورأيه فيحهم الله، قال الله تعالى: ﴿ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم﴾ ، أي إنما قدرنا عليهم أن يقولوا ذلك ليحملوا أوزارهم ومن أوزار الذين يتبعونهم ويوافقونهم، أي يصير عليهم خطيئة ضلالهم في أنفسهم، وخطيئة إغوائهم لغيرهم واقتداء أولئك بهم، كما جاء في الحديث: ﴿من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً﴾ ، روى العوفي عن ابن عباس في الآية: ﴿ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم﴾ أنها كقولهم: ﴿وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم﴾ ، وقال مجاهد: يحملون أثقالهم، ذنوبهم وذنوب من أطاعهم، ولا يخفف عن أطاعهم من العذاب شيئاً .

﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِ قَالَتْ اللَّهُ يُبَيِّنُهُمْ لِيَكِ الْقَوَائِدُ فَحَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَنَّهُمْ مِنَ الْمَدَابِ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْرِجُهُمْ وَيَقُولُ بَيْنَ يَدَيْكَ الَّذِينَ كَفَرْتُمْ فَسَكُوتٌ لَهُمْ قَالِ الَّذِينَ أُوتُوا آيَاتِنَا إِنَّ الْخِزْيَانَ يَوْمَ السَّعَةِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿١٦﴾﴾ .

قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿قد مكر الذين من قبلكم﴾ قال: هو النمروذ الذي بنى الصرح، وقال زيد بن أسلم: أول جبار كان في الأرض النمروذ، وقال آخرون: بل هو بختنصر، وقال آخرون: هذا من المثل لإبطال ما صنعه هؤلاء الذين كفروا بالله وأشركوا في عبادته غيره، كما قال نوح عليه السلام: ﴿ومكروا مكراً كبيراً﴾ أي احتالوا في إضلال الناس بكل حيلة وأمالوهم إلى شركهم بكل وسيلة كما يقول لهم أتباعهم يوم القيامة: ﴿بل مكر الليل والنهار إذ تأمرونا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً﴾ الآية. وقوله: ﴿فأتى الله بنيانهم من القواعد﴾ أي اجتنه من أصله وأبطل عملهم، كقوله تعالى: ﴿كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفاها الله﴾ ، وقوله: ﴿فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقلد في قلوبهم الرعب﴾ ، وقال الله ههنا: ﴿فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون﴾ ثم يوم القيامة يخزيهم • أي يظهر فضائحهم وما كانت نجته ضمائرهم فيجعله علانية كقوله تعالى: ﴿يوم تبلى السرائر﴾ أي تظهر

قبض روح المؤمن وروح الكافر عند قوله تعالى: ﴿بَشِّرْ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ الآية.
 ﴿مَنْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَنَّمُوا أَنَّهُ وَلكِنْ
 كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظُنُّونَ ﴿٢٦٢﴾ فَأَسَابَتْهُمْ سِقَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَخَافَ بِهِمْ نَارَ كَأْفَاءٍ بِهِمْ لِأَنَّ مَا يَنْتَظِرُونَ ﴿٢٦٣﴾﴾

يقول تعالى مهتداً للمشركين على تماديهم في الباطل واعتزازهم بالدنيا: هل ينتظر هؤلاء إلا الملائكة أن تأتيهم لقبض أرواحهم، قاله قتادة ﴿أو يأتي أمر ربك﴾ أي يوم القيامة وما يعاينونه من الأحوال. وقوله: ﴿كذلك فعل الذين من قبلهم﴾ أي هكذا تمادي في شركهم أسلافهم ونظراؤهم وأشباههم من المشركين، حتى ذاقوا بأس الله، وحلوا فيما هم فيه من العذاب والنكال، ﴿وما ظلمهم الله﴾ لأنه تعالى أعذر إليهم وأقام حججه عليهم بإرسال رسله وإنزال كتبه، ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ أي بمخالفة الرسل والتكذيب بما جاءوا به؛ فلهذا أصابتهم عقوبة الله على ذلك، ﴿وخالق بهم﴾ أي أحاط بهم من العذاب الأليم، ﴿ما كانوا به يستهزئون﴾ أي يسخرون من الرسل إذا توعدهم بعقاب الله فلهذا يقال لهم يوم القيامة ﴿هذه النار التي كنتم بها تكذبون﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَنْزَلْنَا لِقَابَهُمْ أَنَّ اللَّهَ أَخَذَ مِنْ قُلُوبِهِمْ وَمَنْ لِي بِقُلُوبِهِمْ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُرًا ﴿٢٦٤﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصُّلُوعَ ﴿٢٦٥﴾ فَجَاءَتْ مِنْ هَدَىٰ اللَّهُ مِنْ هَدَىٰ اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴿٢٦٦﴾ فَبِئْسَ مَا تَفَعَّلُوا كَيْفَ كَانَتْ عَذَابَ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٦٧﴾ إِنْ تَحَرَّصَ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ حَافِظٍ ﴿٢٦٨﴾﴾

يخبر تعالى عن اغترار المشركين بما هم فيه من الإشراك واعتذارهم محتجين بالقدر بقولهم: ﴿لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آبائنا ولا حرمنا من دونه من شيء﴾ أي من البحائر والسوائب والوصائل وغير ذلك مما كانوا ابتدعوه واخترعوه من تلقاء أنفسهم ما لم ينزل به سلطاناً، ومضمون كلامهم أنه لو كان تعالى كارهاً لما فعلنا لأنكره علينا بالعقوبة ولما أمكننا منه؛ قال تعالى راداً عليهم شبهتهم: ﴿فهل على الرسل إلا البلاغ المبين﴾ أي ليس الأمر كما تزعمون أنه لم ينكره عليكم، بل قد أنكره عليكم أشد الإنكار ومهاكم عنه أكد النهي، وبعث في كل أمة أي في كل قرن وطائفة من الناس رسولاً، فلم يزل تعالى يرسل إلى الناس الرسل بذلك منذ حدث الشرك في بني آدم في قوم نوح الذين أرسل إليهم نوح، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، إلى أن ختمهم بمحمد ﷺ الذي طبقت دعوته الإنس والجن في المشرق والمغرب ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن أعبدوا الله واجتنبوا الطغافوت﴾ فكيف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول: ﴿لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء؟﴾ فمشيئته تعالى الشرعية عنهم متفية لأنه نهاهم عن ذلك على ألسنة رسله؛ وأما مشيئته الكونية وهي تمكينهم من ذلك قدرأ فلا حجة لهم فيها، لأنه تعالى خلق النار وأهلها من الشياطين والكفرة وهو لا يرضى لعباده الكفر، وله في ذلك حجة بالغة وحكمة قاطعة. ثم إنه تعالى قد أخبر أنه أنكر عليهم بالعقوبة في الدنيا بعد إنذار الرسل، فلماذا قال: ﴿فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ أي أسألوا عما كان من أمر من خالف الرسل وكذب الحق، كيف دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها﴾ فقال: ﴿ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير﴾ ثم أخبر الله تعالى رسوله ﷺ أن حرصه على هدايتهم لا ينفعهم، إذا كان الله قد أراد إضلالهم، كقوله تعالى: ﴿ومن يرد الله فتنه فلن يملك له من الله شيئاً﴾، وقال نوح لقومه: ﴿ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم﴾، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿إن تحرص على هدايتهم فإن الله لا يهدي من يضل﴾. كما قال الله: ﴿من يضل الله فلا هادي له ويذرهم في طغيانهم يعمهون﴾، وقوله: ﴿فإن الله﴾ أي شأنه وأمره، ﴿لا يهدي من يضل﴾ أي من أضله، فمن ذا الذي يهدي من بعد الله؟ أي لا أحد ﴿وما لهم من ناصرين﴾ أي يتقذرونه من عذابه ووقاهه ﴿إلا له الخلق والأمر

بارك الله رب العالمين ﴿١٦﴾ .

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مِنْ بَشَرٍ بَيْنَ يَدَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾﴾
 يَسْتَبِينَ لَهُمُ الَّذِينَ يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَيَلْعَنُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿١٨﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ يَكُونُ ﴿١٩﴾﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن المشركين أنهم حلفوا فاقسموا بالله ﴿جهد أيمانهم﴾ أي اجتهدوا في الحلف وغلظوا الأيمان أنه لا يبعث الله من يموت، أي استجدوا ذلك وكذبوا الرسل في إخبارهم لهم بذلك، وحلفوا على نقيضه . فقال تعالى مكذباً لهم وراداً عليهم : ﴿بلى﴾ أي بلى سيكون ذلك، ﴿وهدأ عليه حقاً﴾ أي لا بد منه ، ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أي فلجهدهم يخالفون الرسل ويقعون في الكفر . ثم ذكر تعالى حكمته في المعاد وقيام الأجساد يوم التناد فقال : ﴿ليبين لهم﴾ أي للناس ، ﴿الذي يختلفون فيه﴾ أي من كل شيء ، ﴿ويلعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين﴾ أي في أيمانهم وأقسامهم لا يبعث الله من يموت . ثم أخبر تعالى عن قدرته على ما يشاء وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، والمعاد من ذلك إذا أراد كونه فإنما يأمر به مرة واحدة ، فيكون كما يشاء كقوله : ﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾ ، وقال : ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾ ، وقال في هذه الآية الكريمة : ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾ أي أنه تعالى لا يحتاج إلى تأكيد فيما يأمر به فإنه تعالى لا يمانع ، ولا يخالف ، لأنه الواحد القهار ، العظيم الذي قهر سلطانه وجبروته وعزته كل شيء فلا إله إلا هو ولا رب سواه .

﴿وَالَّذِينَ عَادُوا إِلَى آثَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُرِيَنَّهُمْ فِي النَّارِ حَسَنَةً وَلَآئِجُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٠﴾﴾
 صَبِرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢١﴾﴾ .

يخبر تعالى عن جزائه للمهاجرين في سبيله ابتغاء مرضاته ، الذين فارقوا الدار والإخوان والمخلان رجاء ثواب الله وجزائه ، وقد وعدهم تعالى بالمجازاة الحسنة في الدنيا والآخرة فقال : ﴿لننبوئنهم في الدنيا حسنة﴾ ، قال ابن عباس : المدينة ، وقيل : الرزق الطيب ، قاله مجاهد ، ولا مناقاة بين القولين ، فإنهم تركوا مساكنهم وأموالهم فموضهم الله خيراً منها في الدنيا ، فإن من ترك شيئاً لله عوضه الله بما هو خير له منه ، وكذلك وقع ، فإن الله مكن لهم في البلاد ، وحكمهم على رقاب العباد ، وصاروا أمراء حكاماً وكل منهم للمتقين إماماً ، وأخبر أن ثوابه للمهاجرين في الدار الآخرة أعظم مما أعطاهم في الدنيا فقال : ﴿ولأجر الآخرة أكبر﴾ أي مما أعطيناهم في الدنيا ﴿لو كانوا يعلمون﴾ أي لو كان المتخلفون عن الهجرة معهم يعلمون ما ادخر الله لمن أطاعه واتبع رسوله ، ولهذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاه يقول : خذ بارك الله لك فيه ، هذا ما وعدك الله في الدنيا ، وما ادخر لك في الآخرة أفضل ، ثم قرأ هذه الآية : ﴿لننبوئنهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون﴾ ، ثم وصفهم تعالى فقال : ﴿الذين صبروا وعلىٰ ربهم يتوكلون﴾ أي صبروا على الأذى من قومهم متوكلين على الله الذي أحسن لهم العاقبة في الدنيا والآخرة .

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَتَتْلُوا أَنْعَلُ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ وَالنَّبِيُّ وَالرُّسُلُ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْنَا الذِّكْرَ لِشَيْءٍ لِلنَّاسِ مَا تُبْرَكُ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ .

قال ابن عباس : لما بعث الله محمداً ﷺ رسولاً أنكرت العرب ذلك أو من أنكرت منهم وقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً فأنزل الله : ﴿أكان للناس هجياً أن أنزل إلي رجل منهم أن أنزل الناس﴾ الآية ، وقال : ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾ يعني أهل الكتب العاصية بشراً كانت الرسل إليهم أم ملائكة؟ فإن كانوا ملائكة أنكرتهم ، وإن كانوا بشراً فلا تتكروا أن

يكون محمد ﷺ رسولاً، والغرض أن هذه الآية الكريمة أخبرت بأن الرسل الماضين قبل محمد ﷺ كانوا بشراً كما هو بشر، كما قال تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾، وقال: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بَدَأًا مِنَ الرُّسُلِ﴾، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾، ثم أرشد الله تعالى من شك في كون الرسل كانوا بشراً إلى سؤال أصحاب الكتب المتقدمة عن الأنبياء الذي سلفوا، هل كان أنبياءهم بشراً أو ملائكة، ثم ذكر تعالى أنه أرسلهم ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بالحجج والدلائل ﴿وَالزَّبِيرِ﴾ وهي الكتب، قاله ابن عباس ومجاهد؛ والزبير: جمع زيور، تقول العرب: زبرت الكتاب إذا كتبه. وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزَّبِيرِ﴾، وقال: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾. ثم قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ يعني القرآن ﴿لِنُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ أي من ربهم لعلكم بمعنى ما أنزل الله عليكم، وحرصك عليه واتباعك له، ولعلنا بأنك أفضل الخلائق وسيد ولد آدم فتفصل لهم ما أجمل وتبين لهم ما أشكل والمراد بأهل الذكر أهل الكتاب^(١١)، ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي ينظرون لأنفسهم فيبهتدون فيفوزون بالنجاة في الدارين.

﴿أَتَأْتِيَ الَّذِينَ لَا يَتَّقُونَ اللَّهَ أَنْ يَخْشَوْا رَبَّهُمْ وَالْأَرْضَ الَّتِي لَا يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٥) ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَتَأْخُذَهُمْ بِمَعْجِرِينَ﴾ (١٦) ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّهُمْ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (١٧) ﴿﴾.

يخبر تعالى عن حلمه وإنظاره العصاة الذين يعملون السيئات ويدعون إليها، ويمكرون بالناس في دعائهم إياهم وحملهم عليها مع قدرته على أن يخسف بهم الأرض، أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون، أي من حيث لا يعلمون مجيئه إليهم، كقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾، وقوله: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ﴾ أي في قلبهم في المعاش واشتغالهم بها في أسفار ونحوها من الأشغال الملحية، قال قتادة والسدي: تقلبهم أي أسفاهم؛ وقال مجاهد والضحاك: ﴿فِي تَقْلِبِهِمْ﴾ في الليل والنهار، كقوله: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾، وقوله: ﴿فَمَا هُمْ بِمَعْجِرِينَ﴾ أي لا يعجزون الله على أي حال كانوا عليه، وقوله: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ أي أو يأخذهم الله في حال خوفهم من أخذه لهم، فإنه يكون أبلغ وأشد، فإن حصول ما يتوقع مع الخوف شديد، ولهذا قال ابن عباس: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ يقول: إن شئت أخذته على أثر موت صاحبه وتخوفه بذلك^(١٢)، ثم قال تعالى: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ أي حيث لم يعاجلكم بالعقوبة، كما ثبت في «الصحيحين»: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيه»، وقال تعالى: ﴿وَكُلَّيْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾.

﴿أُولَئِكَ يَرَوْنَ أَنَّ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ قَوْمٍ يَنْفَقُوا ظِلْمَهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُخْرًا لِلَّهِ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٨) ﴿وَقَدْ يَنْشُدُّ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالسَّنَائِكِ رَعْمًا لَا يَشْكُرُونَ﴾ (١٩) ﴿يَتَأَفُونَ رَبَّهُمْ مِنْ قُرْبِهِمْ وَيَقْتُلُونَ مَا يَمْزُونَ﴾ (٢٠) ﴿﴾.

يخبر تعالى عن عظمته وجلاله وكبريائه الذي خضع له كل شيء، ودانت له الأشياء والمخلوقات بأسرها، جماداتها وحيواناتها ومكلفوها من الإنس والجن والملائكة، فأخبر أن كل ما له ظل يتفياً ذات اليمين وذات الشمال، أي بكرة وعشياً فإنه ساجد بظله لله تعالى. قال مجاهد: إذا زالت الشمس سجد كل شيء لله عز وجل، وقوله: ﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ أي صاغرون. وقال مجاهد أيضاً: سجد كل شيء فيوه، وأمواج البحر صلاته، ونزلهم منزلة من يعقل إذ أسند السجود إليهم، فقال: ﴿وَلَهُ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ﴾، كما قال: ﴿وَلَهُ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالَهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾.

(١١) قاله ابن عباس ومجاهد والأعمش وعبد الرحمن بن زيد.

(١٢) وكذا روي عن مجاهد وقتادة والضحاك وغيرهم.

﴿وَلَوْ يَرَىٰ ذُنُوبَهُ لَأَنسَىٰ مَا جَاءَ أَنفُسَهُمْ إِن لَّمْ يَرَوْا آيَاتِنَا وَمَا يَحْكُمُونَ﴾ ﴿١٦﴾ ﴿وَلَوْ يَرَىٰ ذُنُوبَهُ لَأَنسَىٰ مَا جَاءَ أَنفُسَهُمْ إِن لَّمْ يَرَوْا آيَاتِنَا وَمَا يَحْكُمُونَ﴾ ﴿١٧﴾ ﴿وَلَوْ يَرَىٰ ذُنُوبَهُ لَأَنسَىٰ مَا جَاءَ أَنفُسَهُمْ إِن لَّمْ يَرَوْا آيَاتِنَا وَمَا يَحْكُمُونَ﴾ ﴿١٨﴾

يخبر تعالى عن حلمه بخلفه مع ظلمهم، وأنه لو يؤاخذهم بما كسبوا ما ترك على ظهر الأرض من دابة، أي لأهلك دواب الأرض ومعهم بنو آدم، ولكن الرب جل جلاله يحلم ويستمر، وينظر إلى أجل مسمى أي لا يعاجلهم بالمعقوبة إذ لو فعل ذلك بهم لما أبقى أحداً. وفي الحديث: «إن الله لا يؤخر شيئاً إذا جاء أجله، وإنما زيادة العمر بالصالحة بالذرية الصالحة يرزقها الله العبد فيدعون له من بعده، فيلحقه دعاؤهم في قبره، فذلك زيادة العمر»^(١١). وقوله: ﴿ويجعلون لله ما يكرهون﴾ أي من البنات ومن الشركاء الذين هم عبيده وهم يأنفون أن يكون عند أحدهم شريك له في ماله، وقوله: ﴿وتصف استنهم الكذب أن لهم الحسنى﴾ إنكار عليهم في دعواهم مع ذلك أن لهم الحسنى في الدنيا، كقوله: ﴿ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى﴾، وقوله: ﴿أفأريت الذي كفر بأياتنا وقال لأوتين مالا وولدا﴾ فجمع هؤلاء بين عمل السوء، وتعني الباطل بأن يجازوا على ذلك حسناً وهذا مستحيل، يعملون السيئات ويجزون الحسنات؟ أيجتنى من الشوك العنب؟ ولهذا قال تعالى رداً عليهم في تمنيهم ذلك: ﴿لا جرم﴾ أي حقاً لا بد منه، ﴿أن لهم النار﴾ أي يوم القيامة، ﴿وأنهم مفطون﴾، قال مجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وغيرهم: منسيون فيها مضيعون، وهذا كقوله تعالى: ﴿فاليوم نساخهم كما نسوا لقاء يومهم هذا﴾ وعن قتادة أيضاً ﴿مفطون﴾: أي معجلون إلى النار من القرط وهو السابق إلى الورد، ولا منافاة لأنهم يعجل بهم يوم القيامة إلى النار وينسون فيها أي يخلدون.

﴿ثُمَّ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتِنَا فِيهَا نَسُفَ لِقَوْمٍ يَكْفُرُونَ﴾ ﴿١٦﴾ ﴿ثُمَّ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتِنَا فِيهَا نَسُفَ لِقَوْمٍ يَكْفُرُونَ﴾ ﴿١٧﴾ ﴿ثُمَّ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتِنَا فِيهَا نَسُفَ لِقَوْمٍ يَكْفُرُونَ﴾ ﴿١٨﴾

يذكر تعالى أنه أرسل إلى الأمم الخالية رسلاً فكذبت الرسل، فلك يا محمد في إخوانك من المرسلين أسوة فلا يهمنك تكذيب قومك لك، وأما المشركون الذين كذبوا الرسل فإنما حملهم على ذلك تزيين الشيطان لهم ما فعلوه. ﴿فهو وليهم اليوم﴾ أي هم تحت المعقوبة والنكال، والشيطان وليهم ولا يملك لهم خلاصاً، ولا صريخ لهم ولهم عذاب اليم، ثم قال تعالى لرسوله إنه إنما أنزل عليه الكتاب ليبين للناس الذي يختلفون فيه، فالقرآن فاصل بين الناس في كل ما يتنازعون فيه، ﴿وهدى﴾ أي للقلوب، ﴿ورحمة﴾ أي لمن تمسك به، ﴿لقوم يؤمنون﴾، وكما جعل سبحانه القرآن حياة للقلوب الميتة بكفرها كذلك يحيي الأرض بعد موتها بما أنزله عليها من السماء من ماء ﴿إن في ذلك لآية لقوم يسمعون﴾ أي يفهمون الكلام ومعناه.

﴿وَإِن لَّكُم فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ لِّمَن يَتَذَكَّرُ فِيهَا فُجُورُهُمْ وَمِنْ تَلَوَاتٍ لِّمَن نَّسِيَ مَا جَاءَ أَنفُسَهُمْ إِن لَّمْ يَرَوْا آيَاتِنَا وَمَا يَحْكُمُونَ﴾ ﴿١٧﴾ ﴿وَإِن لَّكُم فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ لِّمَن يَتَذَكَّرُ فِيهَا فُجُورُهُمْ وَمِنْ تَلَوَاتٍ لِّمَن نَّسِيَ مَا جَاءَ أَنفُسَهُمْ إِن لَّمْ يَرَوْا آيَاتِنَا وَمَا يَحْكُمُونَ﴾ ﴿١٨﴾

يقول تعالى: ﴿وإن لكم﴾ أيها الناس ﴿في الأنعام﴾ وهي الإبل والبقر والغنم، ﴿لعبرة﴾ أي لآية ودلالة على حكمة خالقها وقدرته ورحمته ولطفه، ﴿نسيقكم مما في بطونه﴾ الضمير عائد على الحيوان، فإن الأنعام حيوانات، أي نسيقكم مما في بطن هذا الحيوان، وفي الآية الأخرى ﴿مما في بطونها﴾ ويجوز هذا وهذا، كما في قوله: ﴿كلا إنها تذكرة﴾ فمن شاء ذكره، وقوله: ﴿من بين فرث ودم لبناً خالصاً﴾ أي يتخلص

(١١) أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي الدرداء مرفوعاً.

الدم بياضه وطعمه وحلاوته من بين فرث ودم في باطن الحيوان، فيسري كل إلى موطنه إذا نضج الغذاء في معدته، فيصرف منه دم إلى العروق، ولبن إلى الضرع، وبول إلى المثانة، وروث إلى المخرج؛ وكل منها لا يشوب الآخر، ولا يمازجه بعد انفصاله عنه ولا يتغير به. وقوله: ﴿لَبناً خالصاً سائغاً للشاربين﴾ أي لا ينجس به أحد. ولما ذكر اللبن وأنه تعالى جعله شراباً للناس سائغاً ثنى بذكر ما يتخذُه الناس من الأشربة من ثمرات النخيل والأعشاب، وما كانوا يصنعون من النبيذ المسكر قبل تحريمه، ولهذا امتن به عليهم فقال: ﴿ومن ثمرات النخيل والأعشاب تتخلون منه سكراً﴾، قال ابن عباس: السكر ما حرم من ثمرتيهما، والرزق الحسن ما أحل من ثمرتيهما، وفي رواية: السكر حرامه، والرزق الحسن حلاله، يعني ما يبس منهما من تمر وزبيب، وما عمل منهما من طلاء وهو الدبس وخل ونبيذ حلال يشرب قبل أن يشتد، كما وردت السنة بذلك ﴿إن في ذلك لآية لقوم يعقلون﴾ ناسب ذكر العقل ههنا فإنه أشرف ما في الإنسان، ولهذا حرم الله على هذه الأمة الأشربة المسكرة صيانة لعقولها وقال الله تعالى: ﴿وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون﴾ لياكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون؟

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّعْلِ أَنِ اتَّقِ مِن لَّدُنِّي مُؤْتًا وَمِمَّا يَشْعِرُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ عَلَّمْنِي سَبْلَ النَّعْلِ أَنِ اتَّقِ رَبَّكُ ذُلًّا مَّا خَرَجَ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَّتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

المراد بالوحي هنا (الإلهام) والهداية والإرشاد للنحل، أن تتخذ من الجبال بيوتاً تأوي إليها، ومن الشجر ومما يعرشون، ثم أذن لها تعالى إذناً قديراً تسخيراً أن تأكل من كل الثمرات، وأن تسلك الطرق التي جعلها الله تعالى مذلة لها أي مسهلة عليها حيث شاءت من هذا الجو العظيم والبراري الشاسعة والأودية والجبال الشاهقة، ثم تعود كل واحدة منها إلى بيتها وما لها فيه من فراخ وعسل، فتبني الشمع من أجنتها، وتقيء العسل من فيها، ثم تصبح إلى مراعيها. وقوله تعالى: ﴿فأسلكني سبيل ربك ذللاً﴾ أي فأسلكنيها مذلة لك، نصر عليه مجاهد، وقوله تعالى: ﴿يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس﴾ ما بين أبيض وأصفر وأحمر، وغير ذلك من الألوان الحسنة على اختلاف مراعيها ومأكليها منها، وقوله: ﴿فيه شفاء للناس﴾ أي في العسل شفاء للناس، أي من أدواء تعرض لهم. قال بعض من تكلم عن الطب النبوي: لو قال فيه الشفاء للناس لكان دواء لكل داء؛ ولكن قال: فيه شفاء للناس^(١)، أي يصلح لكل أحد من أدواء باردة، فإنه حار، والشية يداوى بوضه؛ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال إن أخي استطلق بطنه، فقال: «اسقه عسلاً» فذهب فسقاه عسلاً، ثم جاء فقال: يا رسول الله سقيته عسلاً فما زاده إلا استطلاقاً. قال: «اذهب فاسقه عسلاً»، فذهب فسقاه عسلاً، ثم جاء فقال: يا رسول ما زاده إلا استطلاقاً، فقال رسول الله ﷺ: «صدق الله وكذب بطن أخيك»، اذهب فاسقه عسلاً، فذهب فسقاه عسلاً فبرئ^(٢). قال بعض العلماء بالطب: كان هذا الرجل عنده فضلات، فلما سقاه عسلاً وهو حار تحللت فأسرعت في الاندفاع، فزاده إسهالاً، فاعتقد الأعرابي أن هذا يضره وهو مصلحة لأخيه، ثم سقاه فزاد التحليل والدفع، ثم سقاه فكد ذلك، فلما اندفعت الفضلات الفاسدة المضرة بالبدن استمسك بطنه وصلح مزاجه واندفعت الأسقام والألام ببركة إشارته عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام. وفي «الصحاحين» عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يعجبه الحلواء والعسل. وفي «صحيح البخاري» عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «الشفاء في ثلاثة: في شرطة محجم، أو شربة عسل، أو كية بنار، وأنهى أمتي عن

(١) روي عن مجاهد وابن جرير في قوله: ﴿فيه شفاء للناس﴾ أن المراد به القرآن وهذا قول صحيح في نفسه، ولكن ليس هو الظاهر ههنا من سياق الآية، فإن الآية ذكر فيها العسل فالضمير يعود إليه والله أعلم.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري.

الكي». وقال البخاري، عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن كان في شيء من أدويتكم خير: ففي شربة محجم، أو شربة عسل، أو لذعة بنار توافق الداء، وما أحب أن أكتوي». وفي الحديث: «عليكم بالشفامين: العسل والقرآن»^(١)، وعن علي بن أبي طالب أنه قال: «إذا أراد أحدكم الشفاء فليكتب آية من كتاب الله في صحيفة، وليغسلها بماء السماء، وليأخذ من امرأته درهماً عن طيب نفس منها، فليشتر به عسلاً فليشربه كذلك فإنه شفاء، أي من وجوه: قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا﴾، وقال: ﴿فَإِنْ طِبِنَ لَكُمْ مِنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَكُلُوهُ وَرَحِمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا﴾، وقوله: «إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون» أي إن في إلهام الله لهذه الدواب الضعيفة الخلقفة إلى السلوك في هذه المهامة والاجتهاد من سائر الشمار، ثم جمعها للشمع والعسل وهو أطيب الأشياء لآية لقوم يتفكرون في عظمة خالقها ومقدرها ومسخرها ومبسرهما فيستدلون بذلك على أنه الفاعل القادر الحكيم المعلم الكريم الرحيم.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَرْزُقُكُمْ فَرَأَيْتُمْ لَكُمُ الْكُفْرَ لَا يَغْفِرُ لَعَنَ رَبُّنَا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧١﴾﴾.

يخبر تعالى عن تصرفه في عباده، وأنه هو الذي أنشأهم من العدم، ثم بعد ذلك يتوفاهم، ومنهم من يتركه حتى يدركه الهرم. وقد روي عن علي رضي الله عنه ﴿أرذل العمر﴾: خمس وسبعون سنة. وفي هذا السن يحصل له ضعف القوى والخرف وسوء الحفظ وقلة العلم، ولهذا قال: ﴿لكي لا يعلم بعد علم شيئاً﴾ أي بعد ما كان عالماً أصبح لا يدري شيئاً من الفند والخرف، ولهذا روى البخاري عند تفسير هذه الآية عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ كان يدعو: «أعوذ بك من البخل والكسل والهرم وأرذل العمر وعذاب القبر وفتنة الدجال وفتنة المحيا والممات».

﴿وَاللَّهُ تَعَالَىٰ يَمْحُكُمُ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا آلَمِتْ فَأَلَمَتْكُمْ فَرَأَيْتُمْ رِزْقَهُمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَظِيمٍ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿وَاللَّهُ يَمْحُكُمُ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا آلَمَتْكُمْ فَرَأَيْتُمْ رِزْقَهُمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَظِيمٍ ﴿٧٢﴾﴾.

يبين تعالى للمشركين جهلهم وكفرهم فيما زعموه لله من الشركاء، وهم يعترفون أنها عبادة له، كما كانوا يقولون في تليبتهم في حجهم: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك، فقال تعالى منكرأ عليهم: أنتم لا ترضون أن تساواوا عبديكم فيما رزقناكم فكيف يرضى هو تعالى بمساواة عبده له في الإلهية والتعظيم؟ قال ابن عباس في هذه الآية: لم يكونوا ليشركوا عبدهم في أموالهم ونسائهم، فكيف يشركون عبدي معي في سلطاني؟ فذلك قوله: ﴿أفبئسما آفة يجحدون﴾. وقال في الرواية الأخرى عنه: فكيف ترضون لي ما لا ترضون لأنفسكم؟ وقال مجاهد: هذا مثل الآلهة الباطلة. وقال قتادة: هذا مثل ضربه الله فهل منكم من أحد يشاركه مملوكه في زوجته وفي فراشه فتعدلون بالله خلقه وعباده؟ فإن لم ترض لنفسك هذا فالله أحق أن ينزهه منك، وقوله: ﴿أفبئسما آفة يجحدون﴾ أي كيف جحدوا نعمته وأشركوا معه غيره. وعن الحسن البصري قال: كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري: (واقنع برزقك من الدنيا فإن الرحمن فضل بعض عباده على بعض في الرزق، بلاه يتلي به كلاً، فيبتلي من بسط له كيف شكره لله وأداؤه الحق الذي افترض عليه فيما رزقه وخوله)^(٢).

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا فِيهَا وَلِيَتَذَكَّرَ فِيهَا لَكُمْ وَرِزْقَكُمْ مِّنَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا فِيهَا وَلِيَتَذَكَّرَ فِيهَا لَكُمْ وَرِزْقَكُمْ مِّنَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

يذكر تعالى نعمه على عبده بأن جعل لهم من أنفسهم أزواجاً من جنسهم وشكلهم، ولو جعل الأزواج

(١) رواه ابن ماجة عن ابن مسعود مرفوعاً، قال ابن كثير: وإسناده جيد.

(٢) رواه ابن أبي حاتم.

من نوع آخر ما حصل الائتلاف والمودة والرحمة، ولكن من رحمته خلق من بني آدم ذكوراً وإناثاً، وجعل الإناث أزواجاً للذكور، ثم ذكر تعالى أنه جعل من الأزواج البينين والحفدة وهم أولاد البينين، عن ابن عباس: ﴿بينين وحفدة﴾ هم الولد وولد الولد، وقال مجاهد: ﴿بينين وحفدة﴾ ابنه وخادمه، وقال طاوس وغير واحد: الحفدة الخدم. وعن عكرمة أنه قال: الحفدة من خدمك من ولدك وولد ولدك، قال الضحاك: إنما كانت العرب تخدمها بنوها. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: هم الأصهار، قال ابن جرير: وهذه الأقوال كلها داخلة في معنى الحفدة وهو الخدمة، ومنه قوله في القنوت: «واليك تسعى ونحفد» ولما كانت الخدمة قد تكون من الأولاد والخدم والأصهار فالنعمة حاصلة بهذا كله، ولهذا قال: ﴿وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة﴾، قلت: فمن جعل ﴿وحفدة﴾ متعلقاً بأزواجكم فلا بد أن يكون المراد الأولاد وأولاد الأولاد أو الأصهار، لأنهم أزواج البنات أو أولاد الزوجة، فإنهم يكونون غالباً تحت كنف الرجل وفي حجره وفي خدمته، وأما من جعل الحفدة الخدم فعنده أنه معطوف على قوله: ﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً﴾ أي جعل لكم الأزواج والأولاد خدماً، وقوله: ﴿ورزقكم من الطيبات﴾ أي من المعطاعم والمشارب، ثم قال تعالى متكرراً على من أشرك في عبادة المنعم غيره: ﴿أفبالباطل يؤمنون﴾؟ وهم الأنداد والأصنام ﴿وبنعمة الله هم يكفرون﴾؟ أي يسرون نعم الله عليهم ويضيفونها إلى غيره.

﴿وَيَسْتَكْبِرُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ شَيْئاً وَلَا يَنْصَلِحُونَ ﴿٧٢﴾ فَلَا تَضْرِبُوا فِي الْأَمْثَالِ لَكُمْ اللَّهُ بِعَمَلِكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٣﴾﴾

يقول تعالى إخباراً عن المشركين الذين عبدوا معه غيره مع أنه هو المتعم المتفضل الخالق الرازق وحده لا شريك له، ومع هذا يعبدون من دونه من الأصنام والأنداد والأوثان ﴿ما لا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض شيئاً﴾ أي لا يقدر على إنزال مطر ولا إنبات زرع ولا شجر، ولا يملكون ذلك لأنفسهم، أي ليس لهم ذلك ولا يقدرون عليه لو أرادوه، ولهذا قال تعالى: ﴿فلا تضربوا الله الأمثال﴾ أي لا تجعلوا له أنداداً وأشباعاً وأمثالاً ﴿إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ أي أنه يعلم ويشهد أنه لا إله إلا هو وأنتم بجهلكم تشركون به غيره.

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِمَّا رَزَقْنَا حَسَنًا فهُوَ يُفْنِقُ بِهِ مِثْرًا وَجَهَنًّا هَلْ يَنْتَوِيكَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾

قال ابن عباس: هذا مثل ضربه الله للكافر والمؤمن. وكذا قال قتادة، واختاره ابن جرير، فالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء مثل الكافر، والمرزوق الرزق الحسن فهو ينفق منه سراً وجهراً هو المؤمن، وقال مجاهد: هو مثل مضروب للوثن وللحق تعالى، فهل يستوي هذا وهذا؟ ولما كان الفرق بينهما ظاهراً واضحاً بيناً لا يجهله إلا كل غبي قال الله تعالى: ﴿الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون﴾.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا تَجَلِّيًا أُنْذِرَكُمْ أَنْتُمْ لَا تَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَانَا يُوجِّهُهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٥﴾﴾

قال مجاهد: وهذا أيضاً المراد به الوثن والحق تعالى، يعني أن الوثن أبكم لا يتكلم ولا ينطق بخير ولا بشيء ولا يقدر على شيء بالكلبية، فلا مقال ولا فعال، وهو مع هذا ﴿كل﴾ أي عيال وكلفة على مولاه ﴿أينما يوجهه﴾ أي يبعثه ﴿لا يأت بخير﴾ ولا ينجح مسعاه ﴿هل يستوي﴾ من هذه صفاته ﴿ومن يأمر بالعدل﴾ أي بالقسط فمقاله حق وفعاله مستقيمة ﴿وهو على صراط مستقيم﴾، وقال ابن عباس: هو مثل للكافر والمؤمن أيضاً كما تقدم. وقال ابن جرير: نزلت في رجل من قريش وعنده يعني قوله: ﴿عبداً مملوكاً﴾ الآية، وفي قوله: ﴿وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم﴾ إلى قوله: ﴿وهو على صراط مستقيم﴾

قال: هو عثمان بن عفان، قال: والأبكم الذي أينما يوجه لا يأت بخير قال: هو مولى لعثمان بن عفان، كان عثمان ينفق عليه ويكفله ويكفيه المؤونة، وكان الآخر يكره الإسلام ويأباه، وينهاه عن الصدقة والمعروف، فنزلت فيهما^(١).

﴿وَيَلِّغُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أُنزِلُ السَّمَاءَ إِلَّا كَلِمَاتٍ يُبَيِّنُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٧٨﴾
 ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ٧٩﴾
 ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْفَخْرِ مَكْرُورٍ فِي حَزْنٍ أَلَمَّا مَا يُلْمَعُونَ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ٨٠﴾

يخبر تعالى عن كمال علمه وقدرته على الأشياء في علمه غيب السماوات والأرض واختصاصه بعلم الغيب، فلا اطلاع لأحد على ذلك إلا أن يطلعه تعالى على ما يشاء، وفي قدرته التامة التي لا تخالف ولا تمنع، وأنه إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون كما قال: ﴿وما أمرنا إلا واحدة كَلِمَةً بالبصر﴾ أي فيكون ما يريد كطرف العين، وهكذا قال ههنا: ﴿وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب إن الله على كل شيء قدير﴾، ثم ذكر تعالى مثته على عباده في إخراجه إياهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً، ثم بعد هذا يرزقهم السمع الذي به يدركون الأصوات، والأبصار التي بها يحسون المرئيات، والأفئدة وهي العقول، وهذه القوى والحواس تحصل للإنسان على التدرج قليلاً قليلاً، كلما كبر زيد في سمعه وبصره وعقله حتى يبلغ أشده، وإنما جعل تعالى هذه في الإنسان ليتمكن بها من عبادة ربه تعالى، فيستعين بكل جراحة وعضو وقوة على طاعة مولاه، كما جاء في «صحيح البخاري» عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يقول تعالى من عادى لي ولياً فقد بارزني بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أفضل من أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن دعاني لأجيبه، ولئن استعاذ بي لأعيذه، وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته، ولا بد له منه». فمعنى الحديث أن العبد إذا أخلص الطاعة صارت أفعاله كلها لله عز وجل، فلا يسمع إلا لله، ولا يبصر إلا لله أي ما شرعه الله له، ولا يبطش ولا يمشي إلا في طاعة الله عز وجل مستعيناً بالله في ذلك كله. ولهذا جاء في بعض رواية الحديث في غير الصحيح: «في يسمع وبني يبصر وبني يبطش وبني يمشي»، ولهذا قال تعالى: ﴿وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾، كقوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون﴾، ثم نبه تعالى عباده إلى النظر إلى الطير المسخر بين السماء والأرض كيف جعله يطير بجناحين بين السماء والأرض في جو السماء ما يملكه هناك إلا الله بقدرته تعالى التي جعل فيها قوى تفعل ذلك، وسخر الهواء بحملها، ويسير الطير كذلك كما قال تعالى في سورة الملك: ﴿أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمكنهن إلا الرحمن إنه بكل شيء بصير﴾، وقال ههنا: ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ يُؤْمِنُكُمْ سَكَتًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ يُرِيكُمُ آيَاتِهِ يَوْمَ تَعْلَمُونَهَا يَوْمَ تَعْلَمُونَ ٨١﴾
 ﴿وَمِنَ امْتِنَانِهَا وَأَنْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَتَتْكُمْ لِكْرٍ مِّنَ اللَّهِ وَتَعْلَمُونَ أَنَّكُمْ جَعَلْتُمْ مِمَّا خَلَقَ ظُلُمًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ سُرُبِيعٍ وَقِيعٍ مِّنَ الْحَرِّ وَسُرُبِيلٍ تُفَيْكِرُ بِأَنْعَامِكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ فَيْضَهُ مَعَكُمْ ٨٢﴾

(١) ذكر السهيلي: أن الأبكم، هو أبو جهل لعنه الله، واسمه عمرو بن هشام بن المغيرة. والذي يأمر بالعدل: هو عمار بن ياسر العنسي المدحجي، وكان أبو جهل يعذبه على الإسلام، ويعذب أمه سمية، وكانت مولاة لأبي جهل، وقد طعنها بالرمح في قلبها، فماتت، فهي أول شهيدة في الإسلام.

الآية، وقال: ﴿وعنت الوجوه للحمي القيوم﴾ أي خضعت وذلت واستكانت وأنابت واستسلمت. وقوله: ﴿وآلقوا إلى الله يومئذ السلم وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ أي ذهب واضمحل ما كانوا يعبدونه افتراء على الله فلا ناصر لهم ولا معين ولا مجير، ثم قال تعالى: ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً﴾ الآية، أي عذاباً على كفرهم وعذاباً على صدعهم الناس عن اتباع الحق، وهذا دليل على تفاوت الكفار في عذابهم كما يتفاوت المؤمنون في منازلهم في الجنة ودرجاتهم، كما قال تعالى: ﴿قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون﴾.

﴿وَيَوْمَ نَبُعثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَرَزَقْنَاكَ مِنْكَ أَلْكَتَابًا مَبِينًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهَدَى رَحْمَةً وَرَحْمَةً لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

يقول تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً ﷺ: ﴿ويوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء﴾ يعني أمك، أي اذكر ذلك اليوم وهوله وما منحك الله فيه من الشرف العظيم والمقام الرفيع، وهذه الآية شبيهة بقوله: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾، وقوله: ﴿ورزقنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء﴾ قال ابن مسعود: قد بين لنا في هذا القرآن كل علم وكل شيء، وقال مجاهد: كل حلال وكل حرام. وقول ابن مسعود أعم وأشمل، فإن القرآن اشتمل على كل علم نافع من خير ما سبق، وعلم ما سيأتي، وكل حلال وحرام، وما الناس إليه محتاجون في أمر دنياهم ودينهم ومعاشهم ومعادهم، ﴿وهدى﴾ أي للقلوب، ﴿ورحمة ويشرى للمسلمين﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

يخبر تعالى أنه يأمر عباده بالعدل وهو القسط، ويندب إلى الإحسان كقوله تعالى: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾، وقال: ﴿والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على شرعية العدل والتدب إلى الفضل. وقال ابن عباس: ﴿إن الله يأمر بالعدل﴾ قال: شهادة أن لا إله إلا الله، وقال سفيان بن عيينة: العدل في هذا الموضع هو استواء السريرة والعلانية من كل عامل لله عملاً، والإحسان أن تكون سريرته أحسن من علانيته، وقوله: ﴿وإيتاء ذي القربى﴾ أي يأمر بصلة الأرحام، كما قال: ﴿وأت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تيلر تيليراً﴾، وقوله: ﴿وينهى عن الفحشاء والمنكر﴾، فالفواحش المحرمات والمنكرات ما ظهر منها من فاعلها، ولهذا قال في الموضع الآخر: ﴿قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن﴾، وأما البغي فهو العدوان على الناس. وقد جاء في الحديث: «ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة من البقي وقطعة الرحم»، وقوله: ﴿يعظكم﴾ أي يأمركم بما يأمركم به من الخير وينهاكم عما ينهاكم عنه من الشر ﴿لعلكم تذكرون﴾. وقال الشعبي، عن ابن مسعود يقول: إن أجمع آية في القرآن في سورة النحل: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾ الآية^(١)، وقال قتادة: ليس من خلق حسن كان أهل الجاهلية يعملون به ويستحسنونه إلا أمر الله به، وليس من خلق سيئ كانوا يتعايرونه بينهم إلا نهى الله عنه وقدم فيه، وإنما نهى عن سفاسف الأخلاق ومذامها، وفي الحديث: «إن الله يحب معالي الأخلاق ويكره سفاسفها». وقال الحافظ أبو يعلى عن علي بن عبد الملك بن عمير عن أبيه قال: بلغ أكنم بن صيفي مخرج النبي ﷺ فأراد أن يأتيه فأتى قومه أن يدعوه وقالوا: أنت كبيرنا لم تكن لتخف إليه، قال: فليأته من يبلغه عني ويبلغني عنه، فانتدب رجلاً، فأتيا النبي ﷺ فقالا: نحن رسل أكنم بن صيفي، وهو يسألك من أنت وما أنت؟ فقال رسول الله ﷺ: «أما من أنا

(١) أخرجه ابن جرير الطبري.

فأنا محمد بن عبد الله، وأما ما أنا فأنا عبد الله ورسوله، قال: ثم تلا عليهم هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ الآية، قالوا: ردد علينا هذا القول، فردد عليهم حتى حفظوه، فأتيا أكثم فقالا: أبا أن برفع نبيه، فسألنا عن نبيه فوجدناه زاكي النسب وسطاً في مضر - أي شريفاً - وقد رمى إلينا بكلمات قد سمعناها، فلما سمعهن أكثم قال: إني أراه يأمر بمكارم الأخلاق وينهى عن ملاتها، فكونوا في هذا الأمر رؤوساً ولا تكونوا فيه أذناً. وعن عثمان بن أبي العاص قال: كنت عند رسول الله ﷺ جالساً إذ شخص بصره فقال: «أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية بهذا الموضع من هذه السورة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾»^(١) الآية.

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَيْلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٦) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزَلَهَا مِنْ بَعْدِ قَرْوَةِ أَهْلِهَا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونُوا مِنْ أَرْبَابٍ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبُورُ كَيْفَ يَبُورُ الْفَيْيُومَةُ كَثِيرٌ فِيهِ تَخْلِفُونَ﴾ (١٧).

هذا مما يأمر الله تعالى به وهو الوفاء بالمعهد والمواثيق والمحافظة على الأيمان المؤكدة، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾، ولا تعارض بين هذا وبين قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ الآية، وبين قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ كَفَارَةٌ لِأَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ أي لا تركوها بلا كفارة، وبين قوله عليه السلام فيما ثبت عنه في «الصحيحين» أنه عليه الصلاة والسلام قال: «إني والله - إن شاء الله - لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير وتحللتها» وفي رواية: «وكفرت عن يميني» ولا تعارض بين هذا كله ولا بين الآية المذكورة هنا وهي قوله: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾، لأن هذه الأيمان المراد بها الداخلة في العهد والمواثيق، لا الأيمان التي هي واردة على حث أو منع؛ ولهذا قال مجاهد في قوله: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ يعني الحلف، أي حلف الجاهلية. ويؤيده ما رواه الإمام أحمد عن جبير بن مطعم قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حلف في الإسلام، وأيما حلف كان في الجاهلية فإنه لا يزيده الإسلام إلا شدة»^(٢)، ومعناه أن الإسلام لا يحتاج معه إلى الحلف الذي كان أهل الجاهلية يفعلونه، فإن في التمسك بالإسلام كفاية عما كانوا فيه. وقال ابن جرير، عن بريدة في قوله: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ قال: نزلت في بيعة النبي ﷺ، كان من أسلم بايع النبي ﷺ على الإسلام، فقال: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ هذه البيعة التي بايعتم على الإسلام، ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ لا يحملنكم قلة محمد وكثرة المشركين أن تنقضوا البيعة التي بايعتم على الإسلام. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَعْمَلُونَ﴾ تهديد ووعيد لمن نقض الأيمان بعد توكيدها. وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزَلَهَا مِنْ بَعْدِ قَرْوَةِ أَهْلِهَا﴾ قال السدي: هذه امرأة خرقاء كانت بمكة كلما غزلت شيئاً نقضته بعد إبرامه، وقال مجاهد وفتادة: هذا مثل لمن نقض عهده بعد توكيده، وهذا القول أرجح وأظهر، سواء كان بمكة امرأة تنقض غزلها أم لا، وقوله: ﴿أَنْكَاثًا﴾ أي أنفاضاً، «تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم» أي خديعة ومكرراً «إِنَّ تَكُونُ أُمَّةٌ مِنْ أُمَّةٍ مِنْ أُمَّةٍ» أي تحلفون للناس إذا كانوا أكثر منكم ليطمئنوا إليكم، فإذا أمكنكم الغدر بهم غدرتم، فنهى الله عن ذلك لئيبه بالأدنى على الأعلى، قال ابن عباس: «إِنَّ تَكُونُ أُمَّةٌ مِنْ أُمَّةٍ» أي أكثر، وقال مجاهد: كانوا يحالفون الحلفاء فيجدون أكثر منهم وأعز، فينقضون حلف هؤلاء ويحالفون أولئك الذين هم أكثر وأعز فنهوا عن ذلك، وقوله: ﴿إِنَّمَا يَبُورُ كَيْفَ يَبُورُ﴾ قال ابن جرير: أي بأمره إياكم بالوفاء بالعهد «وَلْيَبِيتَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ» فيجازي كل عامل بعمله من خير وشر.

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند.

(٢) رواه أحمد ومسلم عن جبير بن مطعم مرفوعاً.

﴿رَبُّ شَاءَ اللَّهُ لِمَلَائِكُمْ أَنَّهُ وَجِدَةٌ وَلَكِنْ يُصَلُّ مِنْ بَيْنِكُمْ وَمَنْ يَهْدِي مِنَ بَشَرَةٍ وَأَلْتَفَتُنَّ مِمَّا كَثُرَ تَسْتَلُونَ ﴿١١٦﴾ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ بَنَاتِكُمْ فَتَمْتَلِكُنَّ كَقَوْمٍ قَدْ بَدَّلُوا آيَاتِنَا بِمَا كَانُوا عَلَى سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَا تَشْتَرُوا بِمَهْدِي اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٨﴾ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَالْخَيْرُ لِلَّذِينَ صَبَرُوا أَبْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَسْتَلُونَ ﴿١١٩﴾﴾ .

يقول الله تعالى: ﴿ولو شاء الله لجعلكم﴾ أيها الناس ﴿أمة واحدة﴾ أي لوفق بينكم ولما جعل اختلافاً ولا تباض ولا شحنا، ﴿ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء﴾ ثم يسألكم يوم القيامة عن جميع أعمالكم فيجازيكم عليها على الفتيل والتفجير والقطمير، ثم حذر تعالى عباده عن اتخاذ الأيمان دخلاً: أي خديعة ومكرراً لئلا تزل قدم ﴿بعهد ليوثها﴾ مثل لمن كان على الاستقامة فحاد عنها، وزل عن طريق الهدى بسبب الأيمان الحائثة، المشتملة على الصد عن سبيل الله، لأن الكافر إذا رأى أن المؤمن قد عاهد ثم غدر به لم يبق له وثوق بالدين، فيصد بسببه عن الدخول في الإسلام، ولهذا قال: ﴿وتلو قوا السوء بما صلدتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم﴾، ثم قال تعالى: ﴿ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً﴾ أي لا تتعاضوا عن الأيمان بالله عرض الحياة الدنيا وزينتها، فإنها قليلة ولو حيزت لابن آدم الدنيا بحذافيرها لكان ما عند الله هو خير له، أي جزاء الله وثوابه خير لمن رجاه وأمن به، وطلبه وحفظ عهده رجاء موعوده، ولهذا قال: ﴿إن كنتم تعلمون﴾ ما عندكم ينفد ﴿أي يفرغ وينقضي فإنه إلى أجل معدود﴾، ﴿وما عند الله باق﴾ أي وثوابه لكم في الجنة باق لا انقطاع ولا نفاذ له، فإنه دائم لا يحول ولا يزول ﴿ولنجزي الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ قسم من الرب تعالى مؤكد باللام أنه يجازي الصابرين بأحسن أعمالهم أي ويتجاوز عن سيئها.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِمَّا زَكَرْنَا أَنْ يُؤْتِيَهُمْ جَزَاءً بِمِثْلِ مَا كَانُوا يَسْعَوْنَ ﴿١٢٠﴾﴾ .

هذا وعد من الله تعالى لمن عمل صالحاً، وهو العمل المتابع لكتاب الله تعالى وستة نبيه ﷺ، من ذكر أو أنشئ من بني آدم وقلبه مؤمن بالله ورسوله، بأن يحييه الله حياة طيبة في الدنيا، وأن يجزيه بأحسن ما عمله في الدار الآخرة. والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت، وقد روي عن ابن عباس وجماعة أنهم فسروها بالرزق الحلال الطيب وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه فسرها بالقناعة. وقال ابن عباس: إنها هي السعادة، وقال الحسن ومجاهد وقتادة: لا يطيب لأحد حياة إلا في الجنة. وقال الضحاك: هي الرزق الحلال والعبادة في الدنيا. والصحيح أن الحياة الطيبة تشمل هذا كله، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «قد أفلح من أسلم، ورزق كفافاً، وقنع الله بما آتاه». وفي رواية: «قد أفلح من هدي للإسلام وكان عيشه كفافاً وقنع به»^(١). وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا همام عن يحيى عن قتادة عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يظلم المؤمن حسنة يعطى بها في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة، وأما الكافر فيقطع بحسناته في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يعطى بها خيراً»^(٢).

﴿إِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَكَلَتْ رَيْبَهُمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١٢٢﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُكُمْ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُمُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ .

هذا أمر من الله تعالى لعباده على لسان نبيه ﷺ، إذا أرادوا قراءة القرآن أن يستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم، وهذا أمر نذوب ليس بواجب، حكى الإجماع على ذلك أبو جعفر بن جرير وغيره من الأئمة. وقد

(١) أخرجه أحمد والترمذي والنسائي.

(٢) أخرجه أحمد ومسلم في صحيحه.

قدمنا الأحاديث الواردة في الاستعانة بسوطه في أول الضمير والله الحمد والمنة. وقوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ قال الثوري: ليس له عليهم سلطان أن يرفعهم في ذنب لا يتوبون منه، وقال آخرون: معناه لا حجة له عليهم، وقال آخرون كقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾. ﴿إِنَّمَا سُلْطَانَهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ قال مجاهد: يطيعونه، وقال آخرون: اتخذوه ولياً من دون الله ﴿وَهُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾، أي أشركوه في عبادة الله، ويحتمل أن تكون الباء سببية أي صاروا بسبب طاعتهم للشيطان مشركين بالله تعالى.

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مُّكَرَّمَةً فَأَنَّهَا خَلَقَتْ بِمَا نُزِّلَ قَالَهَا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١١١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١١٢﴾﴾.

يخبر تعالى عن ضعف عقول المشركين وقلة ثباتهم وإيقانهم وأنه لا يتصور منهم الإيمان وقد كتب عليهم الشقاوة وذلك أنهم إذا رأوا تغير الأحكام ناسخها بمنسوخها قالوا لرسول الله ﷺ: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ أي كذاب، وإنما هو الرب تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. وقال مجاهد: ﴿بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ﴾: أي ورفعاها وأثبتنا غيرها. وقال قتادة: هو كقوله تعالى: ﴿مَا تَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ الآية، فقال تعالى مجيباً لهم: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾ أي جبريل ﴿مَنْ رِيكَ بِالْحَقِّ﴾ أي بالصدق والعدل، ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فيصدقوا بما أنزل أولاً وثانياً وتثبيت له قلوبهم، ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ أي وجعله هادياً وبشارة للمسلمين الذين آمنوا بالله ورسوله.

﴿وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يَكْتُمُونَ بِشْرًا لِكَاثِ أَلْسِنَةٍ أَعْجَمِيٍّ وَقَدْنَا إِنَّمَا عَكْرِبٌ تُبْهِتُ ﴿١١٣﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المشركين ما كانوا يقولونه من الكذب والافتراء والبهت أن محمداً إنما يعلمه هذا الذي يتلوه علينا من القرآن بشر، ويشيرون إلى رجل أعجمي كان بين أظهرهم، غلام لبعض بطون قريش، وكان يباعاً يبيع عند الصفا، وربما كان رسول الله ﷺ يجلس إليه ويكلمه بعض الشيء، وذلك كان أعجمي اللسان لا يعرف العربية، فلهاذا قال الله تعالى راداً عليهم في افتراءهم ذلك: ﴿لِسَانَ الَّذِي يَلْحَدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ أي القرآن، أي فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن في فصاحته وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة التي هي أكمل من معاني كل كتاب نزل على بني إسرائيل، كيف يتعلم من رجل أعجمي؟ لا يقول هذا من له أدنى مسكة من العقل. قال محمد بن إسحاق: كان رسول الله ﷺ - فيما بلغني - كثيراً ما يجلس عند المروة إلى غلام نصراني يقال له (جبر) عبد لبعض بني الحضرمي، فأنزل الله: ﴿وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ لِّسَانِ الَّذِي يَلْحَدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾. وعن عكرمة وقاتدة: كان اسمه (يعيش)، وقال ابن جرير، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يعلم قيناً بمكة، وكان اسمه بلعام، وكان أعجمي اللسان، وكان المشركون يرون رسول الله ﷺ يدخل عليه ويخرج من عنده، فقالوا: إنما يعلمه بلعام فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ لِّسَانِ الَّذِي يَلْحَدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِقَائِلَتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمْ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَاذِبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِقَائِلَتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٥﴾﴾.

يخبر تعالى أنه لا يهدي من أعرض عن ذكره، وتغافل عما أنزله على رسوله ﷺ ولم يكن له قصد إلى الإيمان بما جاء من عند الله، فهذا الجنس من الناس لا يهديهم الله إلى الإيمان بآياته، وما أرسل به رسوله في الدنيا ولهم عذاب أليم موجه في الآخرة، ثم أخبر تعالى أن رسوله ﷺ ليس بمفتر ولا كذاب لأنه إنما يفترى الكذب على الله وعلى رسوله ﷺ شرار الخلق ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ من الكفرة والملحددين

الصعروفين بالكذب عند الناس، والرسول محمد ﷺ كان أصدق الناس، وأبرهم وأكملهم علماً وعملاً، وإيماناً وإيقاناً، معروفاً بالصدق في قومه لا يشك في ذلك أحد منهم، بحيث لا يدعى بينهم إلا بالأمين محمد؛ ولهذا قال هرقل ملك الروم لأبي سفيان: (فما كان ليدع الكذب على الناس ويذهب فيكذب على الله عز وجل).

﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَمَلَّاهُمْ غَضَبَ رَبِّ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٦١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٦٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَهُمْ وَأَصْرَهُمْ وَأُزْلِقَهُمْ هُمْ الْفَاسِقُونَ ﴿١٦٣﴾ لَا جُرْمَ لَكُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْخَيْرُونَ ﴿١٦٤﴾﴾

أخبر تعالى عن كفر به بعد الإيمان والتبصر وشرح صدره بالكفر، واطمان به، أنه قد غضب عليه لعلمهم بالإيمان ثم عدولهم عنه، وأن لهم عذاباً عظيماً في الدار الآخرة، لأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، فأقدموا على ما أقدموا عليه من الردة لأجل الدنيا، ولم يهد الله قلوبهم ويشتمهم على الدين الحق، فطبع على قلوبهم، فهم لا يحفلون بها شيئاً ينفعهم، وحثم على سمعهم وأبصارهم فلا ينتفعون بها، فهم غافلون عما يراد بهم، ﴿لا جرم﴾ أي لا يد ولا عجب أن من هذه صفة، ﴿أنهم في الآخرة هم الخاسرون﴾ أي الذين خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة. وأما قوله: ﴿إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾ فهو استثناء ممن كفر بلسانه ووافق المشركين بلفظه مكرها لما ناله من ضرب وأذى وقلبه يأبى ما يقول، وهو مطمئن بالإيمان بالله ورسوله. وقد روي عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في (عمار بن ياسر) حين عذبه المشركون حتى يكفر بمحمد ﷺ، فوافقهم على ذلك مكرهاً، وجاء معتذراً إلى النبي ﷺ فأنزل الله هذه الآية. وقال ابن جرير: أخذ المشركون عمار بن ياسر فعذبوه، حتى قاربهم في بعض ما أرادوا، فشكا ذلك إلى النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «كيف تجد قلبك؟» قال: مطمئناً بالإيمان، قال النبي ﷺ: «إن عادوا فعد»، وفيه أنه سب النبي ﷺ، وذكر آلهتهم بخير، فشكا ذلك إلى النبي ﷺ فقال: «كيف تجد قلبك؟» قال: مطمئناً بالإيمان، فقال: «إن عادوا فعد» وفي ذلك أنزل الله: ﴿إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾، ولهذا اتفق العلماء على أن المكروه على الكفر يجوز له أن يوالي إبقاء لهجته، ويجوز له أن يأبى كما كان بلال رضي الله عنه يأبى عليهم ذلك وهم يفعلون به الأفاعيل، حتى إنهم ليضعون الصخرة العظيمة على صدره في شدة الحر ويأمرونه بالشرك بالله فيأبى عليهم وهو يقول: أحد، أحد، ويقول: والله لو أعلم كلمة هي أغبط لكم منها لقلتها، رضي الله عنه وأرضاه. وكذلك حبيب بن زيد الأنصاري لما قال له مسيلة الكذاب: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ فيقول: نعم، فيقول: أتشهد أني رسول الله؟ فيقول: لا أسمع، فلم يزل يقطعه إرباً إرباً وهو ثابت على ذلك.

والأفضل والأولى أن يثبت المسلم على دينه ولو أفضى إلى قتله، كما ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة (عبد الله بن حذافة السهمي) أحد الصحابة أنه أسرته الروم فجاءوا به إلى ملكهم فقال له: تنصر وأنا أشركك في ملكي وأزوجك ابنتي، فقال له: لو أعطيتني جميع ما تملك وجميع ما تملكه العرب على أن أرجع عن دين محمد ﷺ طرفة عين ما فعلت، فقال: إذا أقتلك، فقال أنت وذلك، قال: فأمر به فصلب، وأمر الرماة فرموه قريباً من يديه ورجليه، وهو يعرض عليه دين النصرانية فيأبى، ثم أمر به فأنزل، ثم أمر بقدر من تحاسن، فأحسيت وجاء بأسير من المسلمين، فألقاه وهو ينظر، فإذا هو عظام تلوح، وعرض عليه فأبى، فأمر به أن يلقي فيها فرقع في البكرة ليلقى فيها، فبكى، فطمع فيه ودعاه، فقال: إني إنما بكيت لأن نفسي إنما هي نفس واحدة تلقى في هذه القدر الساعة في الله، فأحببت أن يكون لي بعدد كل شعرة في جسدي نفس تعذب هذا العذاب في الله. وفي بعض الروايات: أنه سجنه ومنع منه الطعام والشراب أياماً، ثم أرسل

﴿وما أهل لغير الله به﴾ أي ذبح على غير اسم الله، ومع هذا ﴿فمن اضطر﴾ إليه أي احتاج من غير بني ولا عدوان، ﴿فإن الله غفور رحيم﴾ وقد تقدم الكلام على مثل هذه الآية في سورة البقرة بما فيه كفاية عن إعادته والله الحمد. ثم نهى تعالى عن سلوك سبيل المشركين الذين حللوا وحرموا، بمجرد ما وصفوه واصطلحوا عليه وابتدعوه في جاهليتهم، فقال: ﴿ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب﴾ ويدخل في هذا كل من ابتدع بدعة ليس له فيها مستند شرعي، أو حلل شيئاً مما حرم الله أو حرم شيئاً مما أباح الله بمجرد رأيه وتشهيه، ثم توعد على ذلك فقال: ﴿إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون﴾ أي في الدنيا ولا في الآخرة، أما في الدنيا فمتاع قليل، وأما في الآخرة فلهم عذاب أليم، كما قال: ﴿نمتهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ﴾، وقال: ﴿إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون متاع في الدنيا ثم ألقنا مرجعهم ثم نليقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون﴾.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمًا مَّا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلٍ وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسِهِمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلذَّيِّقِ عَذَابَ النَّوْرِ بِمَهَلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾.

لما ذكر تعالى أنه إنما حرم علينا الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به، ذكر سبحانه وتعالى ما كان حرمه على اليهود في شريعتهم قبل أن ينسخها، وما كانوا فيه من الآصار والتضييق والأغلال والحرَج فقال: ﴿وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل﴾ أي في سورة الأنعام ﴿وما ظلمناهم﴾ أي فيما ضيقنا عليهم ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ أي فاستحقوا ذلك، كقوله: ﴿يفظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ويصدعون عن سبيل الله كثيراً﴾، ثم أخبر تعالى تكرماً وامتناناً في حق العصاة المؤمنين أن من تاب منهم إليه تاب عليه فقال: ﴿ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة﴾ قال بعض السلف: كل من عصى الله فهو جاهل ﴿ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا﴾، أي أقبلوا عما كانوا فيه من المعاصي وأقبلوا على فعل الطاعات، ﴿إن ربك من بعدها﴾ أي تلك الفعل والزلة ﴿لغفور رحيم﴾.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَدَكَ بَكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٨١﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ لَمَنَّتُهُ وَهُدًى لِمَنْ صَرَفَ تَشْتَفِي ﴿١٨٢﴾ وَأَتَيْنَتْهُ فِي الْآخِرَةِ الْكَلِمَةُ الْحَسَنَةُ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٨٣﴾ ثُمَّ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ قُوَّةً حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٨٤﴾﴾.

يمدح تعالى عبده ورسوله وخليله إبراهيم، إمام الحنفاء ووالد الأنبياء، ويبرئه من المشركين ومن اليهودية والنصرانية فقال: ﴿إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً﴾، فأما الأمة: فهو الإمام الذي يقتدى به، والقانت: هو الخاشع المطيع، والحنيف المنحرف قسداً عن الشرك إلى التوحيد، ولهذا قال: ﴿ولم يك من المشركين﴾، قال عبد الله بن مسعود: الأمة معلم الخير، والقانت المطيع لله ورسوله. وقال ابن عمر: الأمة الذي يعلم الناس دينهم. وقال مجاهد: أمة أي أمة وحده، والقانت: المطيع. وعنه: كان مؤمناً وحده والناس كلهم إذ ذاك كفار. وقال قتادة كان إمام هدى، والقانت: المطيع لله، وقوله: ﴿شاكراً لأنعمه﴾ أي قائماً بشكر نعم الله عليه، كقوله تعالى: ﴿وإبراهيم الذي وفى﴾ أي قام بجميع ما أمره الله تعالى به. وقوله: ﴿اجتباه﴾ أي اختاره واصطفاه كقوله: ﴿ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين﴾، ثم قال: ﴿وهداه إلى صراط مستقيم﴾ وهو عبادة الله وحده لا شريك له على شرع مرضي. وقوله: ﴿وآتيناه في الدنيا حسنة﴾ أي جمعنا له خير الدنيا من جميع ما يحتاج المؤمن إليه في إكمال حياته الطيبة، ﴿وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ وقال مجاهد في قوله: ﴿وآتيناه في الدنيا حسنة﴾ أي لسان صدق وقوله: ﴿ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً﴾ أي ومن كماله وعظمته وصحة توحيده وطريقه أنا أوحينا إليك يا خاتم الرسل وسيد الأنبياء ﴿أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾، كقوله في الأنعام: ﴿قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قديماً قديماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾. ثم قال تعالى منكراً على اليهود:

﴿إِنَّمَا حُيِّدَ النَّسْتُ عَلَى الَّذِينَ ائْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَسَاءَ كَمَا تَوَلَّوْا فِيهِ بِمَخْلُوقَاتِهِ﴾ (١٦٦)

لا شك أن الله تعالى شرع في كل ملة يوماً من الأسبوع يجتمع الناس فيه للعبادة، فشرع تعالى لهذه الأمة يوم الجمعة لأنه اليوم السادس الذي أكمل الله فيه الخليقة واجتمعت فيه وتمت النعمة على عباده، ويقال إن الله تعالى شرع ذلك لبني إسرائيل على لسان موسى، فعدلوا عنه، واختاروا السبت لأنه اليوم الذي لم يخلق فيه الرب شيئاً من المخلوقات الذي كمل خلقها يوم الجمعة، فالزمهم تعالى به في شريعة التوراة، ووصاهم أن يتمسكوا به، وأن يحافظوا عليه مع أمره إياهم بمتابعة محمد ﷺ إذا بعثه وأخذ مواليقهم وعهدهم على ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَعَلَ السَّبْتَ عَلَى الَّذِينَ ائْتَلَفُوا فِيهِ﴾، قال مجاهد: اتبعوه وتركوا الجمعة، وقد ثبت في «الصحاحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، ثم هذا يومهم الذي فرض الله عليهم فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فالتاس لنا فيه تبع اليهود غداً والنصارى بعد غد» (١).

﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّدْ لَهُمُ بِاللَّيْلِ إِذْ رَأَيْتَهُمْ يَمُوتُونَ مِمَّنْ سَبَّيْتَهُمْ وَهُوَ أَهْلَمُ بِالْمُهَيِّدِينَ﴾ (١٦٧)

يقول تعالى أمرأ رسوله محمداً ﷺ أن يدعو الخلق إلى الله بالحكمة. قال ابن جرير: وهو ما أنزله عليه من الكتاب والسنة والموعظة الحسنة، أي بما فيه من الزواجر والوقائع بالناس ذكرهم بها ليحذروا بأس الله تعالى، وقوله ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾، أي من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال، فليكن بالوجه الحسن يرفق ولين وحسن خطاب كقوله تعالى: ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم﴾ الآية، فأمره تعالى بلين الجانب، كما أمر به موسى وهارون عليهما السلام حين بعثهما إلى فرعون في قوله: ﴿فقولا له قولاً ليلاً لعلنا نلذه أو يخشى﴾. وقوله: ﴿إن ريك هو أعلم بمن ضل عن سبيله﴾ الآية، أي قد علم الشقي منهم والسعيد، وكتب ذلك عنده وفرغ منه فادعهم إلى الله، ولا تذهب نفسك على من ضل منهم حسرات، فإنه ليس عليك هداهم إنما أنت نذير، عليك البلاغ وعلينا الحساب، ﴿إنك لا تهدي من أحببت﴾، ﴿ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء﴾.

﴿رَبِّكَ عَاقِبَةُ أَعْيُنٍ وَمَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُمْ خَيْرٌ لِّلْمُتَسَبِّحِينَ﴾ (١٦٨) ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي سَبْتٍ مِّمَّا يَنْتَكُرُونَ﴾ (١٦٩) ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ (١٧٠)

يأمر تعالى بالعدل في القصاص والمماثلة في استيفاء الحق، قال ابن سيرين: إن أخذ منكم رجل شيئاً فخذوا مثله، وكذا قال مجاهد والحسن البصري واختاره ابن جرير، وقال ابن زيد: كانوا قد أمروا بالصفح عن المشركين فأسلم رجال ذور منعة، فقالوا: يا رسول الله، لو أذن الله لنا لانتصرنا من هؤلاء الكلاب، فنزلت هذه الآية ثم نسخ ذلك بالجهاد. قال عطاء بن يسار: نزلت سورة النحل كلها بمكة، وهي مكة إلا ثلاث آيات من آخرها، نزلت بالمدينة، بعد أحد حين قتل حمزة رضي الله عنه ومثل به، فقال رسول الله ﷺ: «لئن أظهرني الله عليهم لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم»، فلما سمع المسلمون ذلك قالوا: والله لئن ظهرنا عليهم لنمثلن بهم مثله لم يمثلها أحد من العرب بأحد قط فأنزل الله: ﴿وإن عاقبتهم فاعقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾ إلى آخر السورة، وقال الحافظ أبو بكر البزار، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ وقف على حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه حين استشهد، فنظر إلى منظر لم ينظر إلى منظر أوجع للقلب منه، أو قال لقلبه، فنظر إليه وقد مثل به، فقال: «رحمة الله عليك، إن كنت ما علمتك إلا وصولاً للرحم،

(١) هذا لفظ البخاري.

فعولاً للخيرات. والله لولا حزن من بعدك عليك لسرني أن أتركك حتى يحشرك الله من بطون السباع - أو كلمة نحوها - أما والله على ذلك لأمثلن بسبعين كمثلك، فنزل جبريل على محمد ﷺ بهذه السورة وقرأ: ﴿وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾ إلى آخر الآية، فكفر رسول الله ﷺ يعني عن يمينه وأمسك عن ذلك^(١). وهذه الآية الكريمة لها أمثال في القرآن، فإنها مشتملة على مشروعية العدل والندب إلى الفضل، كما في قوله: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾، ثم قال: ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾، الآية. وقال: ﴿والجروح قصاص﴾، ثم قال: ﴿فمن تصدق به فهو كفارة له﴾، وقال في هذه الآية: ﴿وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾، ثم قال: ﴿ولئن صبرتم لهو خير للصابرين﴾، وقوله تعالى: ﴿واصبر وما صبرك إلا بالله﴾ تأكيد للأمر بالصبر، وإخبار بأن ذلك لا ينال إلا بمشيئة الله وإعانتة، وحوله وقوته، ثم قال تعالى: ﴿ولا تحزن عليهم﴾، أي على من خالفك فإن الله قدر ذلك، ﴿ولا تك في ضيق﴾ أي غم، ﴿وما يمكرون﴾ أي مما يجهدون أنفسهم في عداوتك وإيصال الشر إليك، فإن الله كافيك وناصرك ومؤيدك ومظهرك ومظفرك بهم، وقوله: ﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾، أي معهم بتأييده ونصره ومعونته وهديه وسعيه.

[آخر تفسير سورة النحل، والله الحمد والمئة]



(١) قال ابن كثير: في إسناده ضعف.